مناسبات شهر محرّم

الأوّل من محرّم

* رأس السنة الهجريّة.

* أجمعت المصادر التاريخيّة على أنّ هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله من مكّة إلى المدينة كانت في شهر ربيع الأوّل من السنة الثالثة عشرة بعد المبعث الشريف، وأنّه صلى الله عليه وآله لمّا قدِم المدينة أمر بالتأريخ، فكُتب في ربيعٍ الأوّل، وأنّ المسلمين كانوا يعدّون بالشهر والشهرين من تاريخ دخوله إلى المدينة المنوّرة.

وفي زمن عمر بن الخطاب، اقترح بعضهم اعتماد تأريخ الفرس أو الروم، واستقرّ الرأي في نهاية المطاف على تثبيت التأريخ بهجرة رسول الله، ولكن بدءاً من شهر محرّم جرياً على ما كان عند العرب قبل الإسلام.

***

* عن الإمام الرّضا عليه السلام أنّ الله تعالى استجاب دعاء النبيّ زكريا حينما طلب أن يهبه ذريّة طيّبة في اليوم الأوّل من محرّم، فوهب له يحيى النبيّ عليهما السلام.

* وفي مثل هذا اليوم رفع الله تعالى النبيّ إدريس عليه السلام، وذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ مريم:٥٦-٥٧.

ورفعُه إلى السماء ليس من قبيل رفع نبيّ الله عيسى عليه السلام، بل رُفع ثمّ قُبضت روحه في السماء، كما في الرواية المنسوبة إلى الإمام الباقر عليه السلام.

وإدريس النبيّ هو الذي دفع الوصيّة لنبيّ الله نوح، وقيل إنّ منزله كان في موضع مسجد السهلة قريباً من النجف الأشرف، ويؤكّد بعض المتخصّصين أنّه عليه السلام أوّل من نطق بالحكمة أو ما يُتعارف عليه اليوم بـ«الفلسفة». وقد سُمّي إدريس لكثرة قراءته في الكُتب.

اليوم الثاني

في اليوم الثاني من محرّم سنة ٦١ للهجرة أمر الإمام الحسين عليه السلام، بحطّ الرّحال في كربلاء، وذلك بعدما منعه الحر بن يزيد الرّياحي من مواصلة مسيره نحو الكوفة.

اليوم الثالث

في مثل هذا اليوم من سنة ٦١ للهجرة، وصل عمر بن سعد على رأس أربعة آلاف فارس إلى كربلاء، وكان وصوله إيذاناً بقدوم جيوش الأمويّين التي بقيت تترى إلى كربلاء حتى اليوم التاسع من محرّم.

* خلاص النبيّ يوسف عليه السلام من الجبّ الذي ألقاه إخوته فيه، وقد بقي فيه يوماً وليلة، وكان ابن تسع سنين، كما في الرواية عن الإمام السجّاد عليه السلام.

اليوم الرابع

عبيد الله بن زياد والي الكوفة، يستنفر الناس لقتال الإمام الحسين عليه السلام، ويتوعّد المتخلّفين بالقتل، حتّى أنّ رجلاً كان قد قدم إلى الكوفة ليستوفي مالاً له، ولمّا امتنع عن الخروج إلى كربلاء، أُمر به فضُربت عنقُه.

اليوم الخامس

عبيد الله بن زياد يستدعي حصين بن تميم من القادسيّة ويُسرّحه على رأس أربعة آلاف فارس إلى كربلاء لمؤازرة ابن سعد وتشديد الحصار على الإمام الحسين وأهل بيته، ويستدعي شَبَث بن رِبعي ويأمره بالخروج إلى كربلاء على رأس ألف فارس.

* في مثل هذا اليوم عبر النبيّ موسى عليه السلام بقومه البحر، وأغرق الله تعالى فرعون وجنوده فيه.

السادس من محرّم

كان ابن زياد أمر الناس أن يُعسكروا بـ (النخيلة) على مقربة من الكوفة، وكان خروج العسكر منها إلى كربلاء لا ينقطع، ففي اليوم الواحد كان الناس يخرجون ضحوة ونصف النهار وعشيّة، «حتى لم يبق في الكوفة مُحتلِم» كما في المصادر التاريخيّة، وفيها أن مسجد الكوفة تمت توسعته في زمن وياد ابن أبيه ليتسع لستين ألف مصلٍّ، ويكثر في النصوص التاريخية الحديث عن مائة ألف سيف أي مائة ألف مقاتل في الكوفة في عهد معاوية ومابعده.

اليوم السابع

في اليوم السابع وصل كتاب من ابن زياد إلى عمر ابن سعد يأمره فيه بالحؤول بين معسكر الإمام وبين ماء الفرات «حتى لا يذوقوا منه قطرة واحدة»، فأوعز ابن سعد إلى خمسماية من مقاتليه الأشدّاء أن ينزلوا على ضفاف الفرات لمنع الإمام وأصحابه من بلوغ الماء. في المقابل، خرج إليهم أبو الفضل العباس ومعه نافع بن هلال الجملي وآخرون، فكشفوهم عن الفرات وملأوا عشرين قربة من الماء، وكان هذا آخر ماء يصل إلى معسكر الإمام الحسين عليه السلام، إذ أنّ ابن سعد عزّز الخمسماية فارس بأضعاف مضاعفة من الجند مخافةَ أن يتمكّن أصحاب الإمام من الوصول إلى الماء مرّة ثانية.

اليوم الثامن

عبيد الله بن زياد يبعث إلى عمر بن سعد بكتابٍ مع شمر بن ذي الجوشن، يأمره فيه بأن يعرض على الإمام الحسين عليه السلام النزول على طاعته ليحمله من ثَمّ وأصحابه أُسارى إلى الكوفة، وإنْ أبى فالقتال، ويقول ابن زياد لشمر، إذا تلكّأ ابن سعد في تنفيذ ما أُمر به، فاضرب عُنُقَه وابعث إليَّ برأسه وتولَّ قيادة الجيش بدلاً عنه.

وفي هذا اليوم طلب شمر من ابن زياد كتاب أمان لأبي الفضل العباس عليه السلام وأخوته من أمّه، أمّ البنين عليها السلام، وذلك لأنها من عشيرته.

اليوم التاسع

شمر بن ذي الجوشن يصل إلى كربلاء ومعه كتاب ابن زياد لعمر بن سعد، فلمّا قرأه هذا الأخير، قال: «لا يستسلم حسينٌ والله، إنّ نفس أبيه لَبَين جَنبيه». وبحلول هذا اليوم كان الحصار قد أُطبق على معسكر الإمام الحسين من كلّ جانب.

ثمّ نادى الشمرأبا الفضل العباس وإخوته أبناء أمّ البنين، فلم يلتفتوا إليه، فقال لهم الإمام عليه السلام: «أجيبوه وإن كان فاسقاً..». فسألوه عمّا يريد، فعرض عليهم الأمان، فقالوا له: لعنك الله ولعن أمانك. أتؤمّننا وابن رسول الله لا أمان له!.

وفي مساء هذا اليوم استنفر ابن سعد جيشه وزحف نحو معسكر الإمام الحسين عليه السلام، فبعث إليه الإمام أخاه أبا الفضل العباس لكي يستمهله حتى صبيحة اليوم العاشر، وكان من جملة ما قاله سيّد الشهداء عليه السلام: «.. فإنْ استطعت أن تؤخّرهم إلى غدوة، وتدفعهم عنا العشيّة، لعلّنا نصلّي لربنا وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني قد كنت أحبّ الصلاة له، وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والإستغفار».

* في مثل هذا اليوم كان خروج نبيّ الله يونس بن متّى من بطن

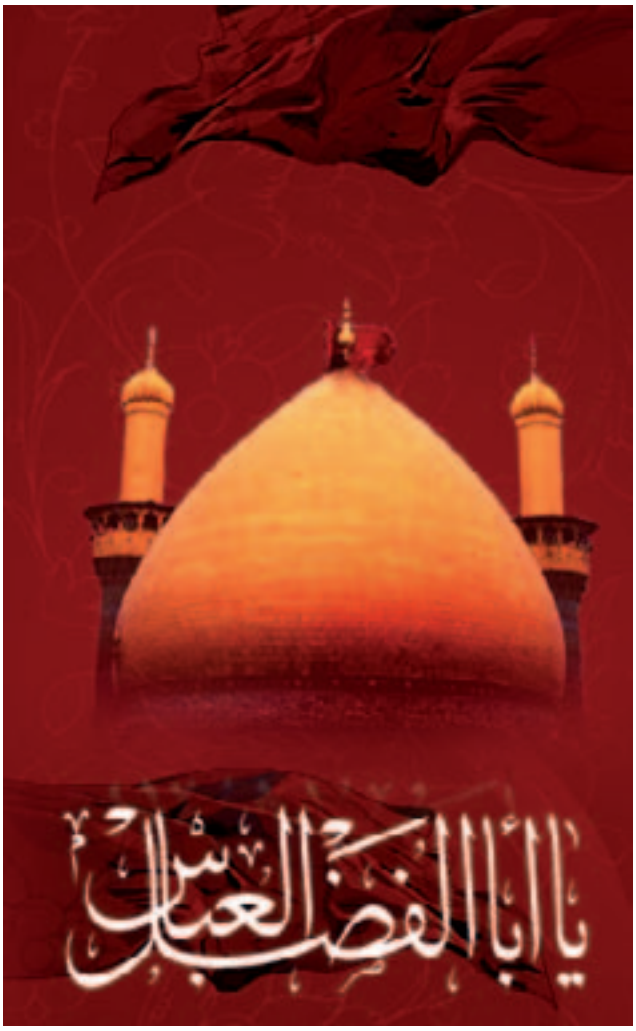

الحوت، وكان عليه السلام نبيّ قومٍ في نينوى، قريباً من مدينة الموصل العراقيّة، وفي رواية منسوبة لأمير المؤمنين أنّ الحوت غاص به في بحر "القلزم" وهو البحر الأحمر، وفي النيل، وفي بحر "طبرستان" وهو بحر "الخزر"، وفي دجلة العوراء. وفي روايات أخرى أنّ الحوت غاص به في "بحر الشام"، وهو البحر الأبيض المتوسط.

ليلة العاشر

في هذا الليلة خطب الإمام الحسين عليه السلام في أصحابه، وقال قوله المشهور: «..هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جَملا..»، وفيها نعى نفسه لابنه الإمام السجّاد وأخته السيدة زينب عليها السلام.

وبات الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه تلك الليلة ولهم دويٌّ كدويِّ النحل، ما بين راكع وساجد وقائم وقاعد.

يوم عاشوراء

* **العاشر من محرّم سنة ٦١ للهجرة.**

في "أمالي الصدوق": نظر علي بن الحسين عليهما السلام، إلى عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فاستعبر ثم قال: ما من يوم أشد على رسول الله من يوم أحد قتل فيه حمزة بن عبد المطلب

أسد الله وأسد رسوله، وبعده يوم قتل فيه ابن عمه جعفر بن أبي طالب. ثم قال عليه السلام: ولا يوم كيوم الحسين، ازدلف إليه ثلاثون ألفاً يزعمون أنهم من هذه الأمة، كلٌّ يتقرب إلى الله عزّ وجلّ بدمه، وهو بالله يذكّرهم فلا يتّعظون، حتى قتلوه ظلماً وبغياً وعدواناً. ثم قال : رحم الله عمي العباس فلقد آثر وأبلى وفدى أخاه بنفسه حتى قطعت يداه فأبدله الله عز وجل بهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنّة كما جعل لجعفر بن أبي طالب. وإن للعباس عند الله تبارك وتعالى منزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة.

* كانت شهادة الإمام الحسين عليه السلام مساء يوم العاشر من محرّم، وقبل غروب الشمس بوقت قليل، وبعد شهادته صلوات الله عليه، هوجِم المُخيّم وبدأت عملية السلب وحرق الخيام، فباتت حُرَمُ رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة الحادي عشر في العراء، وعلى مرأىً منهنّ الجثمان المقدّس للإمام الحسين عليه السلام، وجثامين سائر الشهداء، وبينهم الطفل الرضيع.

* بعد شهادة الإمام صلوات الله عليه، ورضّ صدره وظهره بحوافر الخيول، حُمل رأسه الشريف ورؤوس سائر الشهداء إلى الكوفة في اليوم العاشر نفسه.

اليوم الحادي عشر

يُصَلّى على المبعوث من آلِ هاشمٍ
ويُسبى بنوه، إنّ ذا لعجيبُ.

وقتَ الزوال من هذا اليوم، انطلق موكب السبايا من كربلاء إلى الكوفة، فحُمِلت الهاشميّات على إبلٍ بغير أقتاب، تلفح رؤوسهنّ والوجوه الشمس. أمّا الإمام السجاد عليه السلام فقد كان مقيّد اليدين والرِجلين، فضلاً عمّا كان يُعانيه من الوجع الشديد بسبب مرضه. وقد وكّل عمر بن سعد بالسبايا أحقر أجلاف العرب ليشتموهنّ ويضربوهنّ طوال المسير ما بين كربلاء والكوفة. وفي ذلك يقول السيد رضا الهندي مصوّراً ما عانته العقيلة زينب عليها السلام:

أيَسوقُها زجرٌ بضربِ متونِها
والشمرُ يحدوها بسبِّ أبيها.

اليوم الثاني عشر

* وصول موكب السبايا إلى الكوفة، وخروج أهلها لملاقاته وهم يبكون وينتحبون، فقال الإمام السجاد إنّ هؤلاء يبكون، فمن الذي قتلنا؟

* خطبة للسيدة زينب عليها السلام في أهل الكوفة تقول في مطلعها: «يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر، أتبكون فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنّة..»، حتى قال القائل: «لم أرَ خَفِرةً أنطق منها، كأنها تفرغ عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام»، وكان لفاطمة الصغرى إبنة الإمام الحسين عليه السلام أيضاً خطبة في أهل الكوفة، كما خطب فيهم الإمام السجاد عليه السلام.

* وفي هذا اليوم أُدخل موكب السبي على ابن زياد، فأراد أن ينتقص منهم، فعارضته السيّدة زينب عليها السلام بالكلام وحالت دون قتل الإمام السجّاد عليه السلام، ثمّ أمر برأس الإمام الحسين فطيف به في أزقّة الكوفة.

اليوم الثالث عشر

* يا ثاوياً في هجير الصيف كفّنه
سافي الرياح، ووارته القَنا القُصُدُ.

* بقي أبو عبد الله الإمام الحسين عليه السلام في العراء مدّة ثلاثة أيّام، حتى كان اليوم الثالث عشر من محرّم حيث تولّى الإمام السجّاد دفن أبيه عليه السلام، وعمّه أبي الفضل العباس وأخويه عليّ الأكبر والطفل الرضيع، وعاونه في دفن سائر الشهداء قومٌ من بني أسد مضاربهم على مقربة من كربلاء.

* الإمام أو المعصوم لا يدفنه ولا يُصلّي عليه إلاّ إمام أو معصوم. وقد قيّض الله سبحانه وتعالى للإمام زين العابدين أن ينوجد في كربلاء، على الرغم من كونه أسيراً في الكوفة. ونظير هذه الحادثة تكرّر عند شهادة الإمام الرضا، حيث حضر الإمام الجواد من المدينة إلى طوس في مدّة وجيزة. وتولّى تجهيز أبيه والصلاة عليه، من غير أن يفطن المأمون وأعوانه إلى ذلك.

اليوم السابع عشر

قال الشيخ المفيد، والشيخ الطوسي عليهما الرحمة: وفي اليوم السابع عشر منه انصرف أصحاب الفيل عن مكة وقد نزل عليهم العذاب. وفي المصادر أن عذاب طير الأبابيل نزل عليهم وهو في وادي محسِّر التي تقع بين مزدلفة ومنى.

اليوم التاسع عشر

* إنْ أَخّروه شجاه رؤيةُ حالها أو قدّموه فحالُه يُشجيها.

* في مثل هذا اليوم أمر ابن زياد بخروج موكب السبايا إلى الشام يتقدّمه رأس سيّد الشهداء صلوات الله عليه وقد رُفع على الرمح. ويبدو أن وصول الموكب النبويّ إلى الشام كان في الأول من صفر، وهو يعني أن بقية السيف من أهل البيت عليهم السلام كانوا طيلة ماتبقّى من شهر محرّم في الطريق إلى الشام.

اليوم الخامس والعشرين

* شهادة الإمام عليّ بن الحسين السجّاد مسموماً سنة ٩٥ للهجرة في المدينة المنوّرة، ودُفن في البقيع إلى جوار عمّه الإمام الحسن المجتبى صلوات الله عليهما.

الإمام علي بن الحسين عليهما السلام
واضع مداميك المدرسة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة

د. أليس كوراني*

ولد الإمام زين العابدين «السجاد» بالمدينة المنوّرة في الخامس من شعبان سنة ثمان وثلاثين من الهجرة (38هـ/ 658م) في أيّام جدّه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قبل استشهاده بسنتين، وتوفّي في المحرّم سنة أربع وتسعين للهجرة (94هـ/ 712م) ودفن بالبقيع في المدينة. عاصر الإمام السجاد من الحكّام الأمويين: معاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية (في عصره كانت واقعة كربلاء المشهورة، ووقعة الحرّة في المدينة)، ومعاوية بن يزيد، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك.

خسرت المدينة المنوّرة مركزها السياسيّ في العصر الأمويّ، إذ كانت الخلافة قد انتقلت إلى الكوفة في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم إلى دمشق زمن معاوية بن أبي سفيان. لكنها عرفت حراكاً اجتماعيّاً تمثّل بكثرة غنائم الجهاد والفتوحات، فكثر العبيد والإماء في الدور وسوق النخّاسين، وكثرت الأموال والضياع في أيدي كثير ممن اشتركوا في الفتوح، ونظرة في كتب تراجم الصّحابة والتّابعين تدلّنا على ما آلت أمور بعضهم من عيش رغيد ومال وفير. ففي عصر الوليد بن عبد الملك الذي حكم بين عامي(٨٥هـ ـ ٩٦هـ/ ٧٠٥م – ٧١٥م)، جرى فتح بلخ (٨٥هـ/ ٧٠٥م) وبخارى (٩٠هـ/ ٧٠٩م)، وإسبانيا (٩٢هـ/ ٧١١م) وسمرقند (٩٣هـ/ ٧١٢م)، وامتدت في زمنه حدود الدولة العربيّة إلى بلاد الهند، فتركستان، فأطراف الصين، شرقاً، هذا إلى جانب مما سبق فتحه من الأمصار والبلدان منذ الخلافة الراشدة. فمالت المدينة المنوّرة إلى الهدوء السياسيّ إن صحّ التعبير، بعيدة عن صخب الحياة السّياسيّة والعسكريّة التي عرفتها الأمصار الأخرى، ولا سيّما بعدما استتبّت الأمور لحكام بني مروان. فكان الغنى الفاحش يسير جنباً إلى جنب مع الفقر المدقع، وانقسم النّاس إلى صنفين: منهم من آثر الحياة الدّنيا بكلّ ملذاتها: حلالها وحرامها، ومنهم من بقي متمسّكاً بكتاب الله وبتعاليم الدين الحنيف، يوازن بين الدنيا والآخرة.

وعلت أجسام الميسورين من أهل المدينة الثّياب الفاخرة، كما تفنّن القوم بإعداد الأطعمة، التي تعدّدت ألوانها وصنوفها، إذ أتقنت الإماء إعداد الأطعمة التي عرفنها في بلادهنّ، وساعدهنّ على ذلك ما أتى به التجّار من مكوّنات الأطعمة وطرحوها في الأسواق.أما الدّور والقصور، فقد بالغ الأثرياء في زخرفتها، ولا ينفي ذلك وجود طبقة الفقراء والمساكين في هذه المدينة، تلك الطبقة التي أحسن إليها الإمام زين العابدين عليه السلام في السرّ والعلن.

وظهرت في المدينة المنوّرة طبقة المغنّين والمغنّيات، وتحديداً بين الرقيق، فانتشر فنّ الغناء على نحو واسع، مع ما صحبه من عزف ونقر ورقص واجتماع مريديه في أماكن متفرّقة.

وقد حفظت كتب الأدب والتاريخ والتراجم أسماءهم، منهم: سائب خاثر (ت ٦٣هـ/ ٦٨٢م)، وعيسى بن عبدالله المعروف بطويس(ت ٩٢هـ/ ٧١١م)، ومعبد الذي لقّب بفحل المغنين وإمام أهل المدينة في الغناء(توفي في عهد الوليد بن يزيد بدمشق)، كما عرفت المدينة المنوّرة مغنيّات وصلت شهرتهنّ إلى مسامع حكام بني أميّة في دمشق، فاشتروا بعضهن؛ من هؤلاء المغنيّات: حبابة (ت ١٠٥هـ/ ٧٢٣)، وعزّة الميلاء (ت نحو ١١٥هـ/ ٧٣٣م)، وجميلة (ت نحو ١٢٥هـ / ٧٤٣هـ)، وسلّامة (ت نحو ١٣٠هـ ـ ٧٤٨م)، وسلّامة هذه فتنت أحد القرّاء المكّيين من التابعين الملقّب بالقسّ لكثرة عبادته، فنسبت إليه وغلب عليها لقبه فاشتهرت بسلّامة القس!!! ويكفي أن نعلم أنّه لمّا تولّى عثمان بن حيّان المرّيّ (ت١٥٠هـ/ ٧٦٧م)

* كاتبة من لبنان

المدينة للوليد بن عبد الملك عام (٩٣هـ / ٧١١م)، قال له قوم من وجوه النّاس: إنّك قد وُلّيت على كثرةٍ من الفساد، فإن كنت تريد أن تصلح فطهّرها من الغناء والزنا... وحتى متولّي السوق بالمدينة، الذي عرف بلقبه «بُردان»، كان يجيد الغناء الذي أخذه عن بعض المغنّين المشهورين في هذه المدينة.

وتولّى سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف (ت نحو ١٢٥هـ/ ٧٤٣م) القضاء في المدينة مدّة من الزّمن فاشتدّ، كما يقول الأصفهاني في «أغانيه»، على السّفهاء والشّعراء والمغنين، لكنّه تعرّض لهجاء بعض الشّعراء المغنين، كما وجد بين ظهرانيهم من اتخذ الهزء وإضحاك النّاس مسلكاً في حياته، وفي هذا ورد: كان في المدينة رجل بطّال يضحك النّاس منه، فقال: قد أعياني هذا الرجل أن أُضحكه، يعني علي بن الحسين... فمرّ عليه السلام وخلفه مولیان له، فما كان من البطّال إلّا أن انتزع رداء الإمام من رقبته، ثمّ مضى. فقال زين العابدين عليه السلام: من هذا؟ فقالوا: هذا رجل بطّال يضحك أهل المدينة، فقال: قولوا له: إن لله يوماً يخسر فيه المبطلون. ولم تسلم مكّة المكرّمة من تلك الأجواء، فعلى سبيل المثال، اشتهر فيها ابن سريج (٩٨هـ/ ٧١٦م) وكان ابن سريج هذا لا يتورّع عن رفع صوته بالغناء في موسم الحجّ قرب منى، فكان الرّكبان يصيحون به قائلين: يا صاحب الصّوت أما تتقّي الله! قد حبست النّاس عن مناسكهم... أمّا سعيد بن مسعود الهُذليّ، فكان من كبار المغنين فيها، وكان الشّبان يتقاطرون حوله ويساعدونه في إنجاز أعماله اليوميّة طمعاً في الاستماع إلى أغانيه.

وليس غريباً أن يصف الإمام عليه السلام النّاس في زمانه، فيقول: النّاس في زماننا على ست طبقات: أسد، وذئب، وثعلب، وكلب، وخنزير، وشاة؛ فأمّا الأسد فملوك الدّنيا يحبّ كلّ واحد منهم أن يَغلب ولا يُغلب، وأمّا الذّئب فتجّاركم يذمّون إذا اشتروا، و يمدحون إذا باعوا، وأما الثعلب فهؤلاء الذين يأكلون بأديانهم ولا يكون في قلوبهم ما يصفون بألسنتهم، وأمّا الكلب فيهرّ على النّاس بلسانه و يكرمه النّاس من شرّ لسانه، وأما الخنزير فهؤلاء المخنّثون و أشباههم لا يدعون إلى فاحشة إلا أجابوا، وأمّا الشّاة فهم المؤمنون تُجزّ شعورهم، و تُؤكل لحومهم. فكيف تصنع الشّاة بين أسد وذئب وثعلب وكلب وخنزير ؟؟

المشهد الثقافي العام في عصره عليه السلام

كانت المدينة المنوّرة مركزاً للعلوم الدينية الآيلة للتخصيص والتقعيد، فبالرغم من منع تدوين أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله، بحجّة اختلاط الحديث بالآيات القرآنيّة، إلّا أن أتباع الأئمةعليهم السلام، لم يألوا جهداً في حفظ الحديث وتدوينه وأخذه من صدور الأئمة عليهم السلام والصّحابة والتابعين، حتّى أضحت المدينة المنوّرة حاضرة الإسلام العلميّة، وبها تطوّرت علوم القرآن والحديث والفقه، وتفتّحت علوم الفلسفة والمنطق التي ما لبثت أن تطوّرت كثيراً في العصر العباسيّ بعد حركة التّعريب الواسعة التي شهدتها بغداد وغيرها من المدن الإسلاميّة.

موقع الإمام العلميّ بين الخاصة والعامة

تقدّم الإمام زين العابدين عليه السلام على أهل زمنه علماً وفهماً حتى غدا قبلة الطلاب والوافدين إلى مكّة والمدينة، وتظهر بعض ألقابه الكثيرة تلك المكانة: فهو «وارث علم النبيّين، وخازن وصايا المرسلين». وفيه قال ابن شهاب الزهريّ: «...كان أفضل هاشميّ أدركناه...». وفي حوار دار بينه عليه السلام وبين عبد الملك بن مروان، قال له عبد الملك: «...لقد بيّن عليك الاجتهاد، ولقد سبق لك من الله الحسنى، وأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله، قريب النسب وكيد السبب، وإنك لذو فضل عظيم على أهل بيتك وذوي عصرك، ولقد أُوتيت من الفضل والعلم والدّين والورع ما لم يُؤتَه أحد من مثلك ولا قبلك إلّا من مضى من سلفك...».

أ- الإمام السجاد وعلوم اللغة: كان الإمام زين العابدين فصيحاً بليغاً، وكان إذا وقف يخطب تقشعر له الأبدان من قوّة حججه وسلامة منطقه، وقد عرضت «الصّحيفة السّجاديّة» على بليغ في البصرة فقال: خذوا عنّي حتّى أملي، وأخذ القلم وأطرق رأسه فما رفعه حتى مات.

كما أتقن الإمام عليه السلام اللغة الروميّة (أي اللّغة اللاتينيّة) التي احتكّ المسلمون بأهلها بعد فتح الشام، وفي هذا ورد: «لمّا أُتي بعليّ بن الحسين عليه السلام يزيد بن معاوية... جعلوه في بيت فقال بعضهم: إنّما جعلنا في هذا البيت ليقع علينا فيقتلنا، فراطن الحرس، فقالوا: انظروا إلى هؤلاء يخافون أن يقع عليهم البيت، وإنّما يخرجون غداً فيقتلون؛ قال علي بن الحسين عليه السلام لم يكن فينا أحد يحسن الرّطانة غيري، والرّطانة عند أهل المدينة الرومية».

وفي رواية أخرى، ورد: «ذكر عند أبي عبدالله عليه السلام قتل الحسين عليه السلام وأمر ابنه في حمله إلى الشّام، فقال: إنّه لـمّا ورد إلى السّجن، قال بعض من فيه لبعض: ما أحسن بنيان هذا الجدار، وكان عليه كتابة بالروميّة، فقرأها عليّ بن الحسين عليه السلام فتراطن الرّوم بينهم وقالوا: ما في هؤلاء من هو أولى بدم المقتول، من هذا؟ يعنون عليّ بن الحسين عليه السلام». فلا عجب أن يقف الإمام عليه السلام على غير العربيّة، ولا سيما بعدما وفدت جماعات وأقوام إلى الإسلام، وفي هذا قال الإمام الرّضا عليه السلام لما سئل عن إتقانه لغات عصره: «يا أبا الصّلت، أنا حجّة الله على خلقه، وما كان الله ليتّخذ حجّة على قوم وهو لا يعرف لغاتهم، أو ما بلغك قول أمير المؤمنين

عليه السّلام: أوتينا فصل الخطاب، فهل فصل الخطاب إلّا معرفة اللّغات؟!». ففي عصر عبد الملك بن مروان نُقلت الدواوين من الرّوميّة إلى العربيّة، وكان سليمان بن سعد الخشني بالولاء (ت نحو ١٠٥هـ / ٧٢٣م)، أوّل من نقلها إلى العربيّة، فكان أوّل مسلم وُلّي الدواوين في ذلك العصر، بعدما كان أهل الكتاب من النّصارى يتولّون الدّواوين في الشام قبله. كمّا حوّل الحساب من الرّوميّة إلى العربيّة.

ب - اهتمامه بالقرآن الكريم: كان الإمام السجّاد عليه السلام يقول: «لو مات ما بين المشرق والمغرب، لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي».

وقد شاع بين النّاس اهتمام الإمام عليه السلام بكتاب الله وشرح ما غمض من معانيه، ويروى عن الزّهريّ، أنّه قال: «سمعت عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: آيات القرآن خزائن، فكلّما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها». ودعاؤه عليه السلام في «الصحيفة السجادية» عند ختم القرآن الكريم، دعاء معروف.

ج- اهتمامه بأحاديث النّبيّ صلى الله عليه وآله: بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، مُنع تدوين الأحاديث الشريفة بحجّة اختلاط الحديث بالآيات القرآنيّة، إلّا أنّ الأئمّة عليهم السلام عمدوا إلى تدوينه، وكذلك فعل شيعتهم سرّاً، فساهم هذا التدبير في حفظ أحكام الشريعة، وتفصيل حلالها وحرامها، فقد كان حفظ الأحاديث في الصدورة والكتب الركيزة التي ارتكز عليه الفقه والعلوم الأخرى. وقد حرص الإمام زين العابدين عليه السلام على حفظ أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله، في صدور الرجال وذكرها بين الخاصة والعامة، بالرغم من قرار منع التدوين، حتى قيل: «كان علي بن الحسين ثقة مأموناً، كثير الحديث، عالياً رفيعاً ورعاً».

د- مرجعيته الفقهية: إذا كان الزهريّ فقيه المدينة من قبل الحكّام الأمويين، فإنّ الإمام زين العابدين كان المرجع الفقهيّ الذي رجع إليه القاصي والداني لاستجلاء المسائل وما أشكل على الناس البتّ فيه.

وعلى الرغم موقف الإمام عليه السلام من حكّام بني أميّة السريّ والعلنيّ، إلا أنّه لم يدع الأمور تسوء في محيطه فتدّخل للصالح العام، ولتصحيح مواقف الفقهاء الخاطئة؛ فقد ورد أنّ الزهريّ كان عاملاً لبني أميّة فعاقب رجلاً فمات في العقوبة فخرج هارباً وتوحّش ودخل إلى غار وطال شعره، وفي ذلك العام حجّ علي بن الحسين عليه السلام فقيل له: هل لك في الزهريّ ؟ قال : إنّ لي فيه... فدخل عليه فقال له: إني أخاف عليك من قنوطك ما لا أخاف عليك من ذنبك فابعث بدية مسلمة إلى أهله، واخرج إلى أهلك ومعالم دينك، فقال: فرّجت عني يا سيدي، والله عزّ وجلّ وتبارك وتعالى أعلم حيث يجعل رسالاته. وكان الزهريّ بعد ذلك يروي بالواسطة عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن منادياً ينادي في القيامة، ليقم سيّد العابدين في زمانه، فيقوم عليّ بن الحسين.

هـ- تصويب العلوم العقليّة: بدأت الحياة العقليّة في هذا العصر بالتطوّر، وبدأت براعم علم الكلام تتفتّح وأخذ الناس يخوضون بمسائل كلاميّة، فكان الإمام عليه السلام يصحّح ما أخذه النّاس بالتداول من خلال الأدعية، لأنهم حديثو العهد بهذه العلوم، من ذلك ما روي أنّه عليه السلام (كان في مسجد رسول الله، ذات يوم إذ سمع قوماً يشبهون الله تعالى بخلقه ففزع لذلك وارتاع له، ونهض حتى أتى قبر رسول الله، فوقف عنده ورفع صوته يناجي ربه، فقال في مناجاته له: «إلهي بدت قدرتك ولم تبد هيئةً فجهلوك، وقدروك بالتقدير على غير ما به أنت فشبّهوك، وأنا بريء يا إلهي من الذين بالتّشبيه طلبوك، ليس كمثلك شيء إلهي ولم يدركوك، وظاهر ما بهم من نعمة دليلهم عليك لو عرفوك، وفي خلقك يا إلهي مندوحة أن يناولوك، بل ساووك بخلقك فمن ثمّ لم يعرفوك، واتخذوا بعض آياتك رباً فبذلك وصفوك، فتعاليت يا إلهي عما به نعتوك»).

وقال أبو حمزة الثماليّ: سألت زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام عن الله جلّ جلاله: هل يوصف بمكان؟ فقال: تعالى الله عن ذلك! قلت: فلمَ أسرى بنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله إلى السّماء؟ قال: ليريه ملكوت السّماوات وما فيها من عجائب صنعه وبدائع خلقه. قلت: فقول الله عزّ وجلّ: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ قال: ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، دنا من حجب النّور فرأى ملكوت السّماوات، ثمّ تدلّى فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض حتى ظنّ أنّه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى. كما أنّه ردّ على المرجئة الذين قالوا إنّ التوحيد كافٍ للدّخول إلى الجنّة، وكان يحاور أهل الأديان السّماوية بمما حاورهم به جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله. فكان سلام الله عليه أن مهّد لابنه الإمام الباقر عليه السلام بتفريع ما أصّله على المستويات الدينيّة كافة، ثمّ أكمل الإمام جعفر الصادق عليه السلام بناء هذه المدرسة الشامخة حتى سُمّي الفقه عند الشيعة الإماميّة بالفقه الجعفريّ.